عود إلى مكيافللى وأميره

فى كل وجهة ، وفى كل طريق من الحياة العامة فى أوربا — وفى غيرها من بلاد العالم — نجد اسم مكيافللى مذكوراً ، فى الغالب ، فى معرض السوء . فإذا رأينا سياسة الجشع والأثرة تسير عليها الدول ، وصفنا هذه السياسة بأنها مكيافللية . وإذا رأينا الدس والوقيعة قلنا إن هذه سياسة مكيافللى . وهكذا صار اسم هذا السياسى والأديب علماً على كل ما هو قبيح وعلى كل سيئات الحكم ومثالب النظم . وهكذا اكتسب هذا الرجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وفى عصر النهضة فى إيطاليا ، شهرة غريبة على مر الأيام . ويغلب على الظن أنها شهرة باقية ما بقيت فى العالم أمم وما بقى للدول حكام ، وستظل هذه الشهرة قائمة وباقية بقاء النظم السياسية نفسها فى العالم .

لكن هل هذا الرجل جدير فى الواقع بكل هذه المثالب ؟ وهل هو رجل سوء حقًّا ؟ إن من يدرس حياة مكيافللى وخدماته العامة للمدينة التى نشأ وعاش فيها ، مدينة فيرنزى — فلورنسا — لا بد أن يعلم حق العلم بأنه لم يكن رجل سوء ؛ فخدماته لتلك الدويلة الإيطالية الصغيرة ، وكانت إيطاليا عندئذ منقسمة إلى دويلات متحالفة ومتنافسة ، جديرة بكل تقدير ؛ وكان رجلا ذا ذهن متفوق ممتاز ، ومع ذلك ذاعت له هذه الشهرة السيئة لكتاب واحد من كتبه وضعه فى عزلته بعد أن ترك منصبه ، ورأى السلامة فى أن يقيم بضيعة صغيرة له ببلدة سان كاشيانو فى ضواحى فلورنسا . وقد اضطر مكيافللى إلى هجر العاصمة بعد أن عاد الأمر فيها إلى أسرة مديتشى ، وتشتت أعضاء الحكومة التى كان يخدمها . ووضع هذا الكتاب بعد أن خدم دولته زهاء ثلاثين سنة خدمة جليلة ، وشاهد أحداث تلك الأيام الحافلة بالحوادث ، وعاشر الكثيرين من أبرز رجال عصره الحافل بالعظماء .

والواقع أن العصر الذى عاش فيه مكيافللى كان عصراً عجيباً ، والمدينة التى

نشأ فيها كانت مدينة عجيبة[1] ؛ فقد كانت الدويلة التي عاصمتها فلورنسا من أهم الدويلات الإيطالية وأغناها ، وأكثرها تأثراً بالنهضة الأوربية التى عمت بلاد إيطاليا ثم بلاد أوربا فى ذلك العصر ، على أثر استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، وهروب العلماء البيزنطيين بما يحملونه من كتب ورثوها عن اليونان إلى البلاد الإيطالية . هذا ما يقوله المؤرخون عادة وإن كانت عوامل النهضة الأوربية ، وبخاصة فى إيطاليا ، أبعد مدى من هذا التاريخ ، وهى فى فلورنسا أبعد مدى من غيرها من البلاد . ألم يعش فى تلك المدينة العجيبة ، ويتجول فى أرجائها الشاعر دانتى قبل ذلك بقرنين ؟

ولد مكيافللى فى مدينة فلورنسا فى عصر من أزهر عصورها ، هو عصر لورنزو دى مديتشى[2] ، الذى كان أميرها وحاكمها فعلا ، وبالاسم فقط يعتبر المواطن الأول فى خدمة تلك الجمهورية ، وهو الذى بثرائه ومساهمته جمع العلماء والأدباء والمصورين والنحاتين وجعل مدينته فخر المدن الإيطالية ومركز الترف والرخاء ، وجعل منها مثال الحضارة بخيرها وشرها . ولكن ما لبثت هذه المدينة بعد موته أن اتجهت وجهة أخرى .

فقد عاش فى زمن لورنزو برز فى الحياة راهب اسمه ساڤونارولا[3] ، رأى تلك الحياة العابثة التى يحياها الأثرياء فى فلورنسا ، ورأى البذخ والمجون وتقليد العامة لهم ، فبدأ صوته يرتفع فى الكنائس داعياً الناس إلى نبذ الدنيا والعمل للآخرة ، مذكراً بالثواب منذراً بالعقاب ، وكان الناس يستمعون إلى عظاته فيبكون . فلقد عرف هذا الراهب القصير القامة الحليق الوجه ، كيف يجذب قلوبهم ويستولى على عقولهم . ولم يلبث الناس أن رأوا بعد قليل من الزمن هذا الراهب الصغير يستولى على امور المدينة ويحركها بين يديه ويقودها إلى طريق الخير ، خير الآخرة لا خير الدنيا ، فإذا مدينة الترف تنبذ الترف ، وإذا مدينة الحضارة تعود إلى التقشف ، وإذا المدينة تطرد أثرياءها وعيون أسرها ، وتنقاد المواعظ ساڤونارولا ولسحر حديثه ، وإذا المبشر يصير حاكماً بأمره فى أمور الدنيا بالذات ، تلك التى يندد بها . وتسير الأمور فإذا به يصطدم مع البابا اسكندر السادس

(١) ولد نقولا مكيافللى فى ٣ مايو سنة ١٤٦٩ .
(٢) لورنزو دى مديتشى ١٤٤٨ — ١٤٩٢ .
(٣) ولد ساڤونارولا سنة ١٤٥٢ وأحرق سنة ١٤٩٨ .

صاحب السلطان الدينى الاكبر ويزداد بينهما الجفاء ، فيوقع عليه البابا وعلى مدينته عقوبة الحرمان الرهيبة ، فيقوى خصوم ساڤونارولا ومناهضوه ، وينفض الشعب من حوله ، ويسير هو حثيثا إلى نهاية عنيفة ، شأن مئات غيره من زعماء تلك البلاد المتقلبة ، أرادوا الخير وعملوا له ، فانتهت الحياة بهم إلى نهاية محزنة .

لم يعد آل مديتشى بعد نهاية ساڤونارولا ، بل أنشئت حكومة مجلس العشرة وهى التى شغل فيها الشاب مكيافللى منصب سكرتير هذا المجلس .

خدم مكيافللى هذه الجمهورية منذ تأليفها خير خدمة ، وعرف فضله فى المهمات التى تحتاج إلى لباقة وكياسة ونظر بعيد ، وكان يرسل إلى البلاد المختلفة ، فسافر إلى روما مرات عدة لتسوية خلافات كانت قائمة بين الجمهورية وبين الحكومة الدينية للمدينة الخالدة . وظل مكيافللى فى خدمة مجلس العشرة إلى أن عاد آل مديتشى فتغلبوا مرة أخرى وطاردوا الجمهورية ورجالها . وحينئذ انقلب رجل النشاط والحركة والدهاء والسياسة ، رجل فكر ورجل قلم ، فأخذ يكتب ملاحظاته ويدون خواطره فى كتاب « الأمير » أولاً ، وهو كتاب يصف فيه مايجب أن يكون عليه الأمير ، وما يجب أن يتصف به من صفات حتى يكون ناجحاً محققاً لمراميه وأغراضه . وقبل أن ينفض يديه من هذا الكتاب ابتدأ كتاب « تعليقات على الحوليات العشر الأولى لتيتو ليڤيو[1] » وفيه يصف الجمهورية ومزاياها .

أما كتاب الأمير فقد اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكيافللى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لايحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى هذا الكتاب ؛ فهى لاتزال تسير على مبادئه ، تلك المبادىء السياسية التى فصل فصلا تاما بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة .

لنستعرض قليلا ما جاء فيه : إنه يبتدىء بالكلام عن نشأة الإمارات

---

(١) تيتو ليڤيو المؤرخ الرومانى الشهير (٥٩ — ١٩ ق . م .)

من وراثية ومحدثة مكتسبة ، ثم يصف كلا من النوعين ، ويأخذ فى بيان طريقة اكتساب الإمارات سواء أكان اكتسابها بالسلاح أم بالمصادفة الحسنة ، ويتكلم عن الذين اكتسبوا الإمارة بطرق الشر ، وكيف تقاس قوة الإمارات ، وما هى الإمارات الدينية ، وأنواع الجيوش والمرتزقة منهم .

ثم يأخذ فى الكلام عن الأمراء وفن الحرب ، وما يحمد الأمراء من أجله وما يذمون عليه ، وعن جود الأمير وشحه ، وعن قسوته وحلمه ، وهل الخير له أن يُحَبَّ أم أن يُخشى ، وكيف يجب أن يحافظ الأمراء على كلمتهم ويتجنبوا الكراهية والاحتقار ، وقيمة الحصون للأمير ، وكيفية الحصول على الشهرة . ثم يتكلم عن كاتمى أسرار الأمير وعن تجنب المرائين ، ولماذا خسر أمراء إيطاليا بلادهم ، وضرورة تخليص إيطاليا من المتوحشين .

وقد يرى مكيافللى فى أسوأ حالاته ، على الأقل فى هذا العصر ، عندما يسائل مثلا : هل الأفضل أن يُحب الأمير أم أن يُخشى ؟ ثم يجيب : لعل من المرغوب فيه أن يجمع الإنسان بينهما . ولما كان من العسير جمعهما لدى شخص واحد ، فمن الأسلم للأمير أن يخشى بدلا من أن يحب ما دام مضطرا إلى النزول عن أحد الأمرين . فالناس بوجه عام منكرون للجميل متقلبون خونة جبناء طماعون ، وهم معك ما دمت ناجحاً ، ويبذلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ما لم تكن لك حاجة إليهم ، فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

وفى رأيه أن كل إنسان يؤمن بأن من فضائل الأمير أن يكون وفيا وأن يعيش مستقيما بعيداً عن الخداع ، ومع ذلك تثبت تجاربنا أن الأمراء الذين أتوا أعمالا كبيرة لم يأبهوا كثيراً لإراقة الدماء ، وعرفوا كيف يحتالون على خداع الرجال ، وفى آخر الأمر انقلبوا على أولئك الذين وثقوا بهم . ويجب أن تعلم أن هنالك طريقين للنضال : أحدهما القانون ، والآخر القوة . والأول خاص بالناس والآخر بالحيوان . ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى . لذلك كان من الضرورى أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان . . . والأمير إذ يضطر لسلك الوحوش يجب أن يسلك مسلك الأسود والثعالب . فالأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب . . . ولكن من الضرورى

أن يعرف جيداً كيف يخفى هذه الصفة ، وكيف يكون خداعاً ومرائياً . ففى الناس بساطة كبيرة ، وفيهم شهوة للوصول إلى رغباتهم ، فمن يحاول أن يخدع فلا بد أنه واجد مخدوعاً . . . ليس من الواجب أن يكون الأمير حائزاً لجميع المزايا ، ولكن من الضرورى جدا أن يظهر بمظهر الحائز لها .

فى هذه الأقوال وفى أمثالها وجد الناس فى مكيافللى سياسة شيطانية ، وأخذوا يلومونه ويرون أن ما جاء به مخالف للفضائل ولواقع الأمور . ولو سار الأمراء على مذهبه لضلوا ؛ ولكن مكيافللى وجد الكثيرين من المدافعين عنه وعن آرائه .

أما الدفاع عن آرائه فيقوم على أقوال من الكتاب نفسه ، فهو ينطوى على آراء حكيمة وأحياناً نبيلة لا غنى عنها للأمير أو الحاكم ، مثل قوله : « لا أريد أن أترك جانباً هامًّا من هذا الموضوع ، فهو خطر لا يمكن حماية الأمراء منه إلا فى صعوبة إذا كانوا شديدى الحذر نافذى البصيرة هو خطر المرائين الذين يمتلئ بهم بلاط الملوك ؛ لأن الناس يتساهلون فى أمورهم ويخدعون بطريقة ما ، فلا تسهل وقايتهم من هذا الوباء ، وإذا حاولوا ذلك تعرضوا لخطر الوقوع فى الاحتقار . ولا سبيل لحماية أنفسهم من المداهنين ألا بتفهيم الناس أن إخبارهم بالصدق لا يضايقهم ، ولكن إذا ما أخبر كل واحد الأمير بالصدق فى ذلك ما يقضى على الاحترام .

« لذلك كان على الأمير أن يجد سبيلا ثالثاً ، هو أن يصطفى العقلاء فى دولته ويسمح لهم وحدهم بحرية قول الصدق له ، وذلك فيما يسأل عنه وحده لا فى أمور أخرى . »

وفى صفحات عدة من كتاب الأمير ، وفى صفحات أكثر من كتابه المسمى « تعليقات على الحوليات العشر الأولى من تيتو ليفو » تجد فى مكيافللى النظرة الحكيمة المجردة ، ولكنها تدل أكثر من ذلك على روح الوطنية ، والأمل فى أن يجتمع شمل الدويلات الإيطالية فتؤلف وحدة كبيرة إيطالية ، تكون فى مركزها وخطرها مثل الدولة الرومانية فى أوج مجدها . هذا هو الحلم الذى كان يحلم به ، ولا يزال يحلم به دائما أبناء إيطاليا المفكرون ، وهذا هو السبب الذى أدّى برجلٍ مثل مكيافللى فى سلامة تفكيره أن يتخذ من طاغية

مثل شيزارى بورجيا ابن البابا اسكندر السادس[1] مثالا للأمير الذى يعمل لنجاح فى أغراضه . ذلك أن شيزارى بورجيا مع كل ما سجله له التاريخ من فظائع ، كان طامحاً إلى أن يجمع إيطاليا فى ظل سلطان واحد، ويعيد إليها وحدتها ويمنع عنها سلطة الفرنسيين والألمان الذين يسميهم الإيطاليون الوطنيون بالبرابرة ، وذلك بعد أن اقتطع له أبوه من أملاك الكنيسة ملكا .

عرف مكيافللى شيزارى بورجيا وخالطه حين أرسله مجلس العشرة فى بعثة سياسية ، وعرف مطامحه وآماله ، فرأى فيه قبل كل شىء الأمير الذى يحقق آمال نفسه وآمال كل مثقف فى إيطاليا . ثم سارت الحوادث سيرها ومات البابا اسكندر السادس على قوته فى وقت لم تكن تنتظر فيه وفاته ، وصادف أن أقعد المرض شيزارى فلم يستطع أن يتحكم فى انتخاب البابا الجديد ، فانتخب البابا پيوس الثالث الرقيق الحاشية ، ولكنه لم يعمر غير أشهر ثم مات ، وعلى أثر وفاته انتخب البابا يوليوس الثانى العظيم العنيف محب الفنون المكافح المقاتل ، عدو آل بورجيا ، فكانت النهاية التى أدت بشيزارى إلى الفرار ثم إلى الاعتقال فى إسبانيا ثم الهروب ثم الموت مقاتلا فى بلاد بعيدة .

كل هذه الأمور يستخلص منها سكرتير مجلس العشرة العبر وهو بمنفاه فى داره الصغيرة حيث ينفذ إلى مبادئ الأمور وأصولها فى السياسة بعد أن مارس السياسة لا ممارسة المضطر بل ممارسة الرجل الذى خلق لهذا العمل . وهو إذ انقطعت الأسباب بينه وبين السياسة إلى غير رجعة وإلى غير أمل ، بل ربما لم تنقطع عنه أسباب الأمل الذى يرى تحقيقه بعيداً ، يكتب فى عبارته الهادئة المنحوتة فى جلاء كنحت التماثيل اليونانية فى صفائها وإبانتها وتحديدها ، فيستخلص خلاصه الأشياء التى إن طبقتها فى كل زمن تجد الأمراء أو قل ذوى الأمر يسيرون عليها أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

تلك أن تصخب وتقول إن طبيعة البشرية خير من ذلك ، ولكن تمعن قليلا فى أمور هذا العالم الحديث الذى لا يعرف الأمراء وإنما يعرف الدول وقس مسلك هذه الدول بمعيار من المعايير التى وضعها مكيافللى : إن هنالك طريقين للنضال ، أحدهما القانون والآخر القوة ، والأول خاص بالإنسان والآخر

(١) البابا اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وتولى عرش البابوية من ١٤٩٢ — ١٥٠٣ .

بالحيوان ، ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى ؛ لذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان — عبارة مثيرة ، ولكن أليس يسير عليها أصحاب السلطان حتى اليوم ؟

قد يكون فى كأس الكاتب شىء كبير من المرارة ، والواقع أنه لم يخلد إلى هدوء الضيعة فى سهولة . وتستطيع أن تقرأ وصفه البديع لحياته فى رسالة كتبها فى الزمن الذى كان يحرر فيه كتابه « الأمير » لتعلم من أمره كثيرا ؛ فقد كان يستيقظ مع الفجر فى كل يوم ، فيرتدى ثياب الفلاحين ويذهب إلى عمله فى ضيعته وحساباته إلى المساء . فإذا كان الغروب قصد إلى المقهى حيث يجلس بين الفلاحين ليلعب الورق ويضحك ويصخب ويشاحن ، فإذا قضى هزيعا من الليل قصد إلى داره وخلع ثيابه الخشنة وارتدى ثيابا أنيقة هى التى كان يرتديها حين يقوم بعمله ويقابل الأمراء والحكام ، وفى هذه الثياب يجلس إلى كتبه وأوراقه ومحبرته ليعاشر قوما مهذبين ، كما يقول .

كان سكرتير مجلس العشرة فى السنوات الأخيرة من حياته يأمل العودة إلى أعماله الإدارية والسياسية . وقد لاح له هذا الأمل قريبا ؛ إذ طرد آل مديتشى مرة أخرى . وفى هذه اللحظة عاجلته المنية وترك تراثه تلك الكتب — وفى مقدمتها كتابه الخالد عن الأمير — التى هى جديرة بالدرس فى كل وقت ، والتى تحتوى على حقائق تعتبر وستعتبر دائما أسس السياسة الحديثة .

موسى محمود